مسكن الفلاح

للأستاذ محمود فهمى

المسكن من الضرورات الأولى لحياة الانسان ، وهو المظهر الصادق الدلالة على ثروة السكان وصحتهم ، والمقياس الصحيح لمستوى الشعب ومبلغه من الحضارة .

ولا بد لمن يريد أن يتناول موضوع مسكن الفلاح فى مصر ، من أن يعيش فى وسط الفلاحين، أو يكون له بهم اتصال مباشر مستمر ، حتى يلم بسبل معيشتهم ، ويتفهم عقليتهم وما طبعوا عليه من عادات وما يجرون عليه من تقاليد ويتعرف ما يحيط بأحوال المسكن فى الريف من ظروف وملابسات .

* * *

فى مصر ما يقيف على أربعة آلاف قرية ، وعشرين ألف عزبة يسكنها نحو أربعة عشر مليونا من المصريين هم السواد الأعظم من الشعب ، ومعنى هذا أن سكان المدن هم البقية التى لا تزيد على ثلاثة ملايين ، ويبلغ متوسط عدد سكان كل بيت خمسة أشخاص ، وعلى ذلك يكون عدد المساكن فى الريف المصرى نحو ثلاث ملايين ، فاذا تكلمنا عن مسكن الفلاح فإنما نتكلم عن هذا العدد العظيم من البيوت .

وسكان هذه البيوت هم كبار الزراع ، وصغارهم ، والعمال الزراعيون الذين هم أجراء أو مستأجرون من ملاك يملكون أرضا لا عزبا ، أما بيوت العزب فيملكها الزراع الكبار وهم إنما يبنونها لسكناهم المؤقتة واسكنى عمالهم من أجراء أو مستأجرين .

ومساكن كبار الزراع فى مجموعها ملائمة لا ينقصها الا قليل من الاصلاح والتنسيق ، فقد أعانهم ثراؤهم على حسن إنشائها ، وأعانتهم سهولة المواصلات وتوفر أدوات التنقل لديهم ، من عربات وسيارات ، على الاتصال بالمدن الكبيرة ونقل مواد البناء الحديثة ، والأخذ بأنظمة المبانى العصرية .

أما مساكن صغار الملاك فالفرق ضئيل بينها و بين مساكن العمال الزراعيين، وهذه وتلك على العموم صغيرة المساحة، ضيقة الغرف، قليلة الارتفاع، وتراها مبنية بغير نظام، وعلى مستوى الأرض الزراعية الرطبة المجاورة لها ، وسقوفها ضعيفة لأنها من عيدان الذرة أو من الغاب

أو جريد النخل المرصوص ، وحوائطها عارية من كل طلاء ، وقلما تدخلها أو تتخللها أشعة الشمس لقلة النوافذ فى بعضها وانعدامها فى البعض الآخر . والمواشى تشارك الآدميين فى سكنى هـذه البيوت رغم ضيقها وتلاصقها وضيق الممرات بين كل صفين متقابلين منها حتى يكاد الصفان يلتقيان فى طرفيهما .

وليست فى أكثر هـذه البيوت مراحيض ، بل يقضى الناس حاجتهم فى الخلاء أو فى مراحيض المساجد . وهذا أفتك بصحة الأهلين ، لأن تراكم الأقذار يخلق من الحميات والأمراض القاتلة الشىء الكثير ، وتوضع الأفران فى هذه البيوت وضعا غير سليم ولا مأمون ، وعلى الأسطح ترى أكواما من الأحطاب والمواد الأخرى القابلة للالتهاب وأخصها مايصنع من أرواث المواشى . وفى الطرقات وأمام المنازل ترى أكداسا من السماد ، وعددا من البرك والمستنقعات الراكدة المملوءة بجراثيم الأمراض .

أما فى العزب الجـديدة فمساكن العمال الزراعيين أحسن حالا وأكثر استيفاء للشروط الصحية ، والفضل فى هذا لقانون بناء العزب الذى صدر فى سنة ١٩٣٣ والذى حتم شروطا وأوصافا معينة فى بناء العزب ، على أن هـذه المساكن لا تزال مع ذلك محتاجة الى شىء من الإصلاح .

ولو أن ذلك القانون ، شمل الاصلاحات المستحدثة ، وأوجب التفتيش على مبانى العزب بين فترة وأخرى لضمان استمرارها منظمة ونظيفة ، وحتم تجديد العزب كلما مرت عليها مدة معينة ، لكان ذلك أوفى وأكفل بالغاية .

* * *

ليس عجبا وهذه حال المساكن فى الريف أن نرى ما عليه فلاحونا من قذارة ومايستهدفون له من أمراض مضنية ، وفى اعتقادى أنه لولا أشعة الشمس المساطة على أجسامهم طول النهار ، ولولا أن حياتهم الخلوية فى الحقل وغيره تمتعهم بالهواء الطلق يتخلل أجسامهم وتمتلىء به صدورهم ، لكانت نسبة الوفيات فيهم هائلة مروعة .

وتختلف أشكال المساكن فى الريف المصرى تبعا لاختلاف الظروف المالية ، واختلاف العادات والذوق والجو والموقع وحالة الأمن ، فمثلا كان لرى الحياض بالوجه القبلى أثر فى إنشاء قرى كبيرة متباعدة مرتفعة ، وكان لرطوبة الجو وكثرة المطر وارتفاع منسوب الماء فى شمال الدلتا أثر فى بناء أكثر القرى والعزب هناك بالطوب الأحمر .

ولا ننسى أن نذكر التطور الطبيعى فى حالة المساكن فى مصر . وإن كان تطورا بطيئا عاجزا من مسايرة مثيله فى الأمم التى تسير الى الرقى والحضارة بخطى سريعة متواصلة . وإن كانت خطى العمران فى المدن أسرع منها فى الريف .

هذه صورة واضحة لمساكن الريف المصرى . أتينا بها لنتعرف مقدار النقص فيها ؛ وما لهذا النقص من أثر يرتبط بعوائد وأخلاق وصحة ومال أربعة عشر مليونا من أهلينا ومواطنينا .

وقبل أن نتعرض للكلام على طرق إصلاح المساكن ، واستكمال وجوه النقص فيها ، يجب أن نعرض بايجاز للحالة المالية . حتى نقيم وسائل الاصلاح على أساس يمكن تنفيذه ، والوصول به الى النتيجة المرجوة .

فمن بين الأربعة عشر مليونا الذين يسكنون الريف المصرى نحو سبعة ملايين من النساء ، لايعمل أغلبهن شيئا بحكم التقاليد والعادات . ونحو ثلاثة ملايين بين كهول وأطفال لا حول لهم ولا قوة . وكلهم يعيشون على مجهود الملايين الأربعة الباقية . أى أن كل فرد من هؤلاء العاملين يعول فى المتوسط ثلاثة أو أربعة أشخاص .

أما كبار الملاك ، وحالتهم على العموم مرضية فهم قليلو العدد ، لا يتجاوزون ٧ ٪ من مجموع عدد الملاك الزراعيين ، وأما صغارهم فهم الأغلبية الساحقة إذ يبلغون ٩٣ ٪ من مجموع عدد الملاك ، فحالتهم سيئة . إذ لا يملكون الا ٢٠ ٪ من مجموع الأراضى الزراعية بمعدل عشرة قراريط لكل منهم .

وأما العمال الزراعيون ، وعددهم ليس بالقليل ، إذ يبلغون نحو ثلاثة ملايين ، فهم فى بؤس ، فالأجير منهم يعمل عند المالك بما لا يزيد على ثلاثة قروش يوميا . ولا تزيد أيام العمل السنوية على مائة وثمانين يوما ، أى نصف السنة . وعلى ذلك فأجره اليومى الحقيقى هو قرش ونصف القرش . وعلى هذا الأساس يخص كل فرد فى أسرته من هذا الأجر الزهيد ، ثلاثة أو أربعة مليمات يوميا طوال أيام السنة . أما المستأجرون فليس حظهم بأحسن حالا من هؤلاء الأجراء .

بعد ذلك بقى علينا أن نتعرف مقدار ما يتكلفه كل مسكن ، فقد اختلف تقدير الباحثين فى نفقات مسكن الفلاح ، فمنهم من قال مائة جنيه وأكثر ، ومنهم من تواضع إلى أربعين جنيها . وكان تقدير الجمعية الزراعية المصرية للمنزل النموذجى الذى أقامته بالطوب الأخضر ، بعزبة بهتيم الصغيرة هو خمسة وعشرون جنيها . وفى إعتقادى أن هذا التقدير يخرج عنه ثمن الأرض المقام عليها المنزل . فلو قدرنا متوسط ثمن المنزل الواحد — بما فى ذلك

الثمن المناسب للأرض — بحوالى خمسين جنيها لكان مجموع تكاليف بناء المساكن فى القرى والعزب مائة وخمسين مليونا من الجنيهات . وعلى ذلك فتجديد هذه المساكن كلها دفعة واحدة مجرد خيال ، لأن هذه التكاليف تقرب من ثروة مصر الزراعية جميعها .

قلنا إن فى مصر عشرين ألف عزبة ، يملكها كبار الملاك ، فلو كان متوسط عدد مساكن كل منها خمسة عشر مسكنا ، يقطن كلا منها خمسة أشخاص لكان عدد سكان العزب من هؤلاء العمال الزراعيين وأهاليهم نحو مليون ونصف . فاذا أمكن اصلاح جميع العزب أمكن تحسين مساكن هذا العدد الكبير ، دون أن تتحمل خزانة الدولة شيئا ما . وذلك بأن تستحث كبار الزراع أصحاب العزب على اصلاحها تدريجيا ، إصلاحا يتمشى مع الأصول الصحية ، وأن تعمل الحكومة على تشجيعهم بشتى وسائل التشجيع ، كأن تنظم مسابقات بينهم ، وتمنح الفائزين منهم جوائز مالية ، أو تمنحهم الألقاب والنياشين ، مع منح من يحتاج منهم قروضا من بنك التسليف لهذه الغاية ، لمدد طويلة وشروط سهلة ، ومع تبسيط فى الاجراءات ، وتيسير فى الدفع ، واستمرار العمل بقانون العزب بعد إضافة التشريعات اللازمة اليه ، فيتسابق أصحاب العزب فى هذا المضمار . ولا ننسى أن نذكر بالثناء الجميل ماتقوم به الجمعية الزراعية الملكية من تشجيع أصحاب العزب فى هذا السبيل .

ولإصلاح القرى المصرية بأقل نفقة ممكنة يجب على المصلحين أن يستحثوا خطى التطور البطىء ، ويقاوموا كل ظرف أو محاولة تعطل تياره أو تصده عن سبيله ، حتى لا يصطدم الإصلاح الحديث بتقاليد الفلاح وعاداته فيتعرض للتلاشى أو عدم الاستقرار . وفى هذه الطريقة وحدها الضمان الكافى للتقدم الى الأمام بخطى ثابتة آمنة العثار . ومما يزيد الاطمئنان الى مستقبلنا القريب أن جهود هؤلاء المصلحين فى هذا العمل سوف تقل تدريجيا كلما ارتفع مستوى فلاحنا اقتصاديا واجتماعيا . وسيأتى يوم قريب يقوم فيه الفلاح بإصلاح هذه الحال واستكمال هذا النقص بمحض رغبته ومن حر ماله .

إن أفضل ما يعمل فى هذا النوع من الاصلاح ، هو حث سكان القرى على أن يتداركوا بأنفسهم عيوب مساكنهم ، وهذا فى طوقهم ولا يكلفهم ثمنا باهظا .

فمثلا يمكن فتح نوافذ بسيطة تلائم حاجاتهم وعاداتهم ، للتهوية ودخول الشمس ، وهى لا تكلف كثيرا ، كما أن طلاء المساكن من الداخل ولو بالطين والتبن ثم رشها بالجير لا يتطلب مالا كثيرا ، ويمكن لأصحاب المساكن إجراء هذا العمل بأيديهم فتكون صحية ولا تأوى اليها الحشرات .

وكذلك الحال فى دك أرض المساكن من الداخل بأية مادة صماء كالشقف أو الحجر ، أو على الأقل بمخلوط الطين والتبن حسبما يتوفر فى المنطقة ، وهذا أيضا يقوم به أصحاب المساكن أنفسهم بارتفاع مناسب فلا يدفعون فى ذلك شيئا ، وتقل الرطوبة داخل المساكن.

ويمكن عمل السقف من نفس الغاب أو الجريد مع أفلاق النخيل المستعملة الآن ، بشرط رصها رصا منتظما وربطها معا بحبال دقيقة من ألياف النخيل أو غيرها . ثم دكها من أعلا بالطين والتبن ، وهذه عملية بسيطة سهلة يؤديها الفلاحون بأيديهم أيضا دون أن تكلفهم شيئا ، وبذلك ينتظم منظر السقف ويقل إيواؤه للهوام ، فضلا عن تلطيف حرارة الشمس صيفا والبرد شتاء .

وأكوام السماد ليس أسهل على الفلاح من أن ينقلها من الزريبة إلى رأس حقله مباشرة دون وضعها أمام المسكن ، وفى ذلك من النظافة مايبعد عنه وعن آل بيته كثيرا من الأمراض.

وكذلك الحال فى الأحطاب فلو أن الفلاح وضعها فى مكان يعدّه لها ولعلف الماشية الجاف فى حقله مثلا لقلت الحرائق التى تشب فى المساكن فتسبب أفدح الخسائر .

وحبذا لو أبطلت صناعة مادة الحريق من الروث حتى لا تكون مصدر قذارة للمسكن ولربة البيت التى تصنعها ، وسببا لتمكين الأمراض من جسمها وأجسام من تصنع لهم الخبز وتهيئ لهم الطعام ، فضلا عن فقدها كمادة سمادية عضوية يمكن للفلاح الاستفادة بها فى حقله .

أما مشكلة المواشى فالحل الوحيد لها الآن هو تركها داخل المسكن على أن توضع فى مكان بعيد منفصل عن مخدع الفلاح وأولاده .

ويمكن جعل الفرن ملائما فى المسكن ، وذلك بتعديل بسيط هو جعل فتحاته من الحوش مع بقائه فى الحجرة التى تستعمل عادة للنوم فيؤدى الغرضين معا : التدفئة وصناعة الخبز دون ضرر .

أما عن المراحيض فلو حفر مرحاض بسيط فى مكان مناسب بالمسكن ، لما تطلب ذلك من الفلاح مالا كثيرا ، ولنفى عن جسمه كثيرا من الأمراض .

وأما عن البرك والمستنقعات المنتشرة فى قرانا المصرية ، وعلى الأخص فى الوجه البحرى. فيمكن ردمها بتعاون أهل القرية مع بعضهم البعض . ويمكن توفير المياه الصالحة للشرب باستعمال طريقة الترسيب البسيطة ، اذا كانت القرية قريبة من النيل أو من ترعة عمومية ، أو بواسطة طلمبات يدوية اذا كانت بعيدة عنهما ، يتعاون الجميع فى وضعها بعد التأكد من صلاح مياه منطقتهم للشرب فلا يتكلف كل منهم الا القليل من النفقات .

وأما بقية ما أوردنا من عيوب المساكن كضيقها وقلة ارتفاع الحوائط وتلاصقها وضيق الممرات بينها ، فهذه يمكن اصلاحها تدريجيا عند إنشاء مساكن جديدة فتصلح القرى وتتسع الشوارع بمضى الزمن .

* * *

هـذا موجز لطرق الاصلاح المبسطة التي يمكن تنفيذها بأقل نفقة ممكنة ، وأعتقد أنها هينة على الأغلبية الساحقة من السكان ، وأنها توصل للغاية المرجوة قدر المستطاع . وتساعد على جعل الريف المصرى محببا لأهله داعيا للإقامة فيه بل لعودة من هجره من قبل .

ولسنا فى هـذا الإصلاح مبالغين ولا مبتكرين ، فقـد سبقتنا اليه دول أخرى وسنت قوانين تقضى بإشراف الحكومة على تخطيط وتجـديد مساكن العمال فى الريف والقضاء على المساكن القديمة غير الصحية . أو قيام الهيئات الأخرى بذلك ، كالمجالس القروية أو جمعيات تنشأ لهـذا الغرض تحت الإشراف الحكومى . فلعلنا نحذو هـذا الحذو مع مراعاة ظروفنا وعاداتنا ، وفى ميدان الإصلاح متسع للجميع .

محمود فهمى

— عليك أن تلبس الناس على أخلاقها ، وليس عليك ترقيع أخلاقها .

— الخير تنفعك جوازيه ، والشر تافحك نوازيه .

— الذليل متقيد بغير قيد ، كالكلب إن لم يسد بحث عن سيد .

— إذا خدع الطبيبُ المريضَ أعان الدواء ، و إذا خدع المريضُ الطبيبَ أعان الداء

شوقى